

محمد عابد الجابري ومنهجه في فهم القرآن الكريم - دراسة تحليلية لمنهجه التفسيري

م.م. يونس ياسين نعمة

م.م. علياء عبود علوان عبد

جامعة بابل / كلية التربية الأساسية

المديرية العامة للتربية في محافظة كربلاء

Mohammed Abed Al-Jabri and His Methodology - An analytical study of his interpretive methodology

in Understanding the Holy Quran

Asst. Lec. Aliaa Aboud Alwan Abd

General Directorate of Education in Karbala Governorate

aleaaaboodalshabann@gmail.com

Asst. Lec. Younis Yaseen Neama

University of Babylon / College of Basic Education

Yasynywns157@gmail.com

Abstract;

This article explores the methodology of the Moroccan thinker Mohammed Abed Al-Jabri in understanding the Qur'an as part of his broader intellectual project, Critique of Arab Reason. Al-Jabri addresses a fundamental problem in Qur'anic interpretation: the dominance of traditional and sectarian readings that conflate the sanctity of the divine text with the historical and relative nature of human interpretation. His project seeks to establish a rational and critical approach that preserves the sacredness of the Qur'an while responding to contemporary intellectual and social challenges.

Keywords: The Quran, reason, Arabic, interpretation, objectives, rationality.

المخلص

يتناول هذا البحث منهج المفكر المغربي محمد عابد الجابري في فهم القرآن الكريم بوصفه جزءاً من مشروعه الفكري الأشمل في نقد العقل العربي وإعادة بناء آلياته المعرفية ينطلق الجابري من إشكالية مركزية تتمثل في هيمنة القراءات التراثية والمذهبية على تفسير القرآن وما نتج عنها من خلط بين قداسة النص الإلهي ونسبية الفهم البشري ويسعى من خلال ذلك إلى تأسيس قراءة عقلانية نقدية توازن بين احترام النص القرآني والانفتاح على متطلبات العصر

الكلمات المفتاحية: القرآن، العقل، العربي، تفسير، مقاصد، العقلانية.

التمهيد:

يمثل القرآن الكريم مركزاً أساسياً في الفكر العربي والإسلامي ويمثل تأويله دائماً محوراً للنقاش العلمي والفكري وقد شهد الفكر العربي الحديث توجهات متعددة لفهم النص القرآني وتفسيره بين التمسك بالنقل التقليدي من جهة والانفتاح على منهجيات عقلية جديدة من جهة أخرى. ومن أبرز المفكرين الذين سعوا إلى إعادة قراءة النص القرآني في سياق العقل العربي الحديث محمد عابد الجابري (١٩٣٥-٢٠١٠)، الذي أسس مشروعاً فكرياً واسعاً هدف إلى نقد العقل العربي التقليدي وتحليل بنيته المعرفية ومن ثم إعادة بناء فهم متجدد للنصوص الدينية

والفكرية يرى الجابري أن التأويل لا يعني مجرد التفسير اللفظي أو النقل الحرفي بل هو عملية معرفية تستند إلى تحليل بنية النص والعقل الذي أنتجه ومقاربة السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي ولد فيه وقد ركز الجابري في أعماله على بناء منهج تأويلي عقلاني يعيد قراءة القرآن بطريقة نقدية تهدف إلى الكشف عن المكونات الفكرية والبنوية للنص بعيداً عن الانحياز التقليدي أو الاجتهاد المجرد من المنهجية.

مشكلة البحث:

على الرغم من أهمية مشروع الجابري الفكري، إلا أن قراءة نصوصه المتعلقة بالتأويل القرآني لا تزال محدودة في الدراسات العربية خصوصاً فيما يتعلق بتطبيقاته العملية على القرآن الكريم نفسه. لذلك تنشأ مشكلة البحث في السؤال المركزي: كيف يمكن فهم وتأويل النص القرآني عند محمد عابد الجابري، وما المنهج الذي اعتمده في مقارنته للنص الديني؟

وينبثق من هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الفرعية:

- ما الأسس المعرفية التي بنى عليها الجابري منهجه التأويلي؟
- ما التمييز الذي يقوم به بين الفهم التقليدي والتأويل العقلاني للنص؟
- ما حدود وإمكانات هذا المنهج في تفسير النصوص القرآنية؟

أهداف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى:

١. توضيح المنهج التأويلي الذي اعتمده الجابري في قراءة القرآن الكريم.
٢. تحليل الأسس الفكرية والمعرفية التي يقوم عليها هذا المنهج.
٣. تقييم نقدية لهذا المنهج وإمكاناته في إثراء الدراسات القرآنية الحديثة.

منهج البحث:

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال قراءة أعمال الجابري المتعلقة بالعقل العربي والنص القرآني مع تحليل مكونات مشروعه التأويلي كما تم الاستناد إلى المقاربات النقدية والدراسات العربية حول مشروع الجابري لبيان نقاط القوة والقصور في منهجه ويركز المنهج على دراسة القراءة البنوية العقلية للنص مع مراعاة السياق التاريخي والفكري وذلك لتقديم فهم متكامل لدور التأويل في إعادة بناء الفكر العربي الحديث.

أهمية البحث:

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يسعى إلى:

١. تقديم فهم واضح لمشروع الجابري في تأويل القرآن الكريم، الذي يمثل جسراً بين العقلانية الحديثة والتفكير العربي التقليدي.

٢. إثراء المكتبة العربية بالدراسات التأويلية الحديثة، خصوصاً في فهم العلاقة بين العقل العربي والنص القرآني.

٣. المساهمة في تطوير مناهج التأويل القرآني المعاصرة، بما يساعد الباحثين على قراءة النصوص الدينية بشكل نقدي وعقلاني.

الأسس المعرفية لتأويل الجابري للنص القرآني

إنَّ أي محاولة لتأويل النص القرآني عند محمد عابد الجابري لا يمكن فهمها خارج إطار مشروعه المعرفي الكبير المتمثل في نقد العقل العربي فالتأويل عنده ليس ممارسة لغوية أو تفسيرية فحسب، بل هو مشروع معرفي شامل يسعى إلى إعادة بناء العلاقة بين النص والعقل، وبين التراث والحداثة. ومن هنا، فإن فهم الأسس المعرفية التي انطلق منها الجابري يعدّ مدخلاً ضرورياً لفهم منهجه التأويلي.

مفهوم العقل العربي عند الجابري

يرى الجابري أن التراث العربي الإسلامي تشكّل في إطار ثلاث منظومات معرفية كبرى هي: البيان، والعرفان، والبرهان. وهذه المنظومات ليست مجرد اتجاهات فكرية، بل هي أطر عقلية تحدد طرق التفكير والفهم. العقل البياني وهو الذي تأسس على النصوص واللغة والقياس ويمثل نمط التفكير السائد في الفقه وعلم الكلام. العقل العرفاني، وهو الذي يعتمد على الحدس والإشراق والتجربة الباطنية كما في التصوف والفلسفة الإشراقية. العقل البرهاني الذي يعتمد على البرهان العقلي والاستدلال المنطقي، وهو ما مثّله الفكر الفلسفي الأندلسي (ابن رشد نموذجاً)، لقد انطلق الجابري في قراءته للنص القرآني من تفعيل العقل البرهاني بوصفه أداة عقلية قادرة على تحليل النصوص بعيداً عن التأويلات البيانية والعرفانية التي يراها قد أسهمت في غلق باب الاجتهاد وإنتاج فكر ماضوي غير نقدي، وقد صرّح في مقدمة مشروعه بقوله:

"إنَّ إعادة بناء العلاقة مع النص القرآني لا تكون إلاّ بإعادة بناء العقل الذي يتعامل معه".^١

العلاقة بين البيان والعرفان والبرهان

اعتمد الجابري على هذه الثلاثية ليحلل تطور الفكر الإسلامي. فهو يرى أن التأويل البياني للنصوص الدينية جعل من اللغة سلطة مطلقة، مما أدى إلى تغليب النقل على العقل أما التأويل العرفاني، فقد أخرج النص من سياقه اللغوي والتاريخي، إلى معانٍ باطنية رمزية جعلت النص مغلقاً على غير الخاصة، لذلك دعا الجابري إلى التحول من البيان والعرفان إلى البرهان، أي إلى التأويل العقلي المنهجي الذي يحترم النص ويقرأه في ضوء معقوليته الداخلية وسياقه الموضوعي، ويرى أن العقل البرهاني، الذي يمثل الاتجاه الرشدي الأندلسي، هو السبيل لإحياء روح النقد في الفكر الإسلامي، لأنه يوازن بين النص والعقل دون أن يُخضع أحدهما للآخر. ومن هنا، فقراءته للقرآن تنطلق من تاريخية الفهم لا من قدسية التأويلات القديمة.



موقف الجابري من التراث التفسيري القديم لم يكن الجابري منكراً للتراث التفسيري، لكنه كان ناقداً لطريقته في الفهم. فقد اعتبر أن أغلب المفسرين القدامى _من الطبري إلى الرازي_ اشتغلوا ضمن أفق بياني أو عرفاني، فقيّدوا النص القرآني بإشكالات كلامية أو مذهبية وأدخلوا عليه عناصر خارجية أثّرت في معناه ويقول في فهم القرآن الحكيم لقد أصبح التفسير أداة في يد المذاهب، يتلون بلونها، ويتغير بتغير انتماءات المفسرين»^٢، ومن هذا المنطلق، أراد الجابري أن يؤسس لتفسير موضوعي وعقلاني، يعيد النص إلى ذاته وينزعه من إसार التأويل المذهبي لذلك ركّز على تحليل البنية المفاهيمية للنص، لا على جمع الأقوال المتناثرة حوله.

المنهج المعرفي في قراءة الجابري للقرآن

يرتكز منهج الجابري على ثلاثة أسس معرفية رئيسية:

العقلانية التاريخية: أي ضرورة قراءة النص في سياقه التاريخي والاجتماعي لفهم دلالاته الواقعية. فالنص عنده ليس خطاباً معلقاً في الفراغ، بل هو مرتبط بالواقع العربي الذي نزل فيه.

البنية المفاهيمية للنص: إذ يرى أن القرآن يحمل مفاهيم مركزية (كالحق، والإيمان، والعقل، والوحي) ينبغي تحليلها تحليلاً داخلياً لفهم منطقها الخاص.

القطيعة الإبستمولوجية: وهي فكرة أساسية في فكر الجابري، وتعني تجاوز تراكمات الفهم التراثي الذي تحوّل إلى «معرفة ميتة»، والدخول في مرحلة جديدة من القراءة النقدية المنتجة.^٣

بهذه الأسس الثلاثة، أراد الجابري أن يجعل من التأويل القرآني عملية معرفية تُنتج الوعي، لا أن تكرر التراث.

مفهوم التأويل عند محمد عابد الجابري

يُعَدّ التأويل أحد المفاهيم الإشكالية في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر، لما ينطوي عليه من أبعاد لغوية وفلسفية ومعرفية، وقد مثّل هذا المفهوم عند محمد عابد الجابري محوراً رئيسياً في مشروعه الفكري المتعلق بإعادة بناء العلاقة بين النص والعقل، وبين التراث والحداثة، فالتأويل عنده ليس مجرد عملية تفسيرية تقليدية، بل هو فعل معرفي نقدي يهدف إلى إعادة قراءة النصوص في ضوء منطقها الداخلي وسياقاتها التاريخية، وفي إطار مشروع إصلاح الفكر العربي.

تحديد مفهوم التأويل

يُعرّف الجابري التأويل بأنه: «إعمال العقل في النص من أجل إدراك دلالاته الممكنة، لا تلك التي حصرتها التقاليد التفسيرية في أفق واحد مغلق»^٤، ومن هذا التعريف، يتّضح أن الجابري لا يرى التأويل بديلاً عن التفسير، بل تطوراً معرفياً له، إذ ينتقل من ظاهر النص إلى باطن معناه عبر أدوات عقلية ولغوية ومنهجية منضبطة فالتفسير يكتفي بالمعنى اللغوي المباشر بينما التأويل عند الجابري يسعى إلى استكشاف المعنى العقلي والمقاصدي للنص. ويرفض الجابري التأويلات التي تتجاوز النص لتقرض عليه معاني خارجية أو رمزية مبالغ فيها كما في

الاتجاه العرفاني، ويفرض في الوقت نفسه القراءة الجامدة للنص التي تتوقف عند ظاهر اللفظ. فالتأويل عنده يقوم على التوازن بين النص والعقل، وعلى الالتزام بمعايير معرفية تضمن سلامة الفهم.

التأويل بين الفهم والمعنى

يُميّز الجابري بين "الفهم" و"التأويل"، فالفهم هو إدراك المعنى الأول للنص وفق اللغة والسياق المباشر، أما التأويل فهو الانتقال من الفهم إلى المعنى الثاني أو الأعرق الذي يستبطن مقاصد النص ودلالاته الحضارية. ويرى أن كثيراً من المفسرين القدامى خلطوا بين هذين المستويين، فحوّلوا الفهم إلى تأويل، وأدخلوا على النص عناصر مذهبية أو فلسفية غريبة عن مقاصده^٥، لذلك، يؤكد الجابري أن التأويل ينبغي أن يكون «عملاً عقلياً منضبطاً، لا نزوة ذهنية أو إلهاماً باطنياً»^٦، وهذا يعبر عن موقفه النقدي من التأويل الصوفي والعرفاني الذي يغيب فيه النص لصالح التأمل الباطني.

التأويل والسياق التاريخي

يُعدّ مبدأ التاريخية أحد الركائز الكبرى في التأويل الجابري فهو يرى أن النص القرآني نزل في سياق اجتماعي وثقافي محدد وأن فهمه لا يكتمل إلا بإدراك هذا السياق إلا أن الجابري لا يدعو إلى قراءة تاريخانية تُسقط على النص مفهوم النسبية أو التغير الزمني، بل إلى قراءة تاريخية نقدية تفصل بين الثابت والمتحول في دلالات القرآن وقد عبّر عن ذلك بقوله: "القرآن خطاب إلهي بلغة بشرية، في سياق بشري، ولذلك لا بد أن يفهم بما يحترم لغته وسياقه دون أن يُختزل فيهما"^٧، وبهذا المعنى، يصبح التأويل عنده تفاعلاً بين النص والتاريخ والعقل، لا مجرد نقل للمعنى أو اجترار للتقليد.

ضوابط التأويل عند الجابري

وضع الجابري مجموعة من الضوابط المنهجية التي تضبط عملية التأويل، وهي:

١. احترام النص ومقصده الأصلي: أي ضرورة الانطلاق من النص ذاته، لا من المذاهب أو المرجعيات الخارجية.

٢. الاستناد إلى اللغة بوصفها أداة للفهم لا غاية له: فاللغة وسيلة لاستخراج الدلالة، وليست قيداً يحصرها في الإطار اللفظي فقط.

٣. اعتماد العقل كأداة منهجية: أي ممارسة نقدية للعقل في ضوء النص، لا على حسابه.

٤. البعد المقاصدي: فالتأويل يجب أن يستحضر مقاصد الشريعة الكبرى في فهم النص، لا أن ينغلق في التفاصيل الجزئية.

٥. التجرد من الانتماءات المذهبية والسياسية: لأن التأويل الموجّه يتحول إلى أداة أيديولوجية، ويفقد صفته العلمية^٨.

بهذه الضوابط، أراد الجابري أن يجعل من التأويل أداة لتجديد الفكر الإسلامي، لا لتبرير مواقفه الموروثة.



التأويل كمدخل لإصلاح الفكر الديني

يرتبط مشروع الجابري في التأويل ارتباطاً وثيقاً بمشروعه الإصلاحية فالتأويل عنده ليس غاية معرفية فقط، بل هو أداة لإصلاح الوعي الديني العربي. إذ يرى أن الجمود التفسيري هو أحد أسباب تأخر الفكر العربي، وأن تجاوز هذا الجمود يقتضي إعادة بناء منهج عقلائي في فهم النصوص كما يربط الجابري بين التأويل والإصلاح السياسي والاجتماعي، مؤكداً أن القرآن يمكن أن يكون مصدراً لتجديد القيم الإنسانية والعقلانية، إذا أعيد تأويله في ضوء متطلبات العصر يقول في هذا السياق: «ليس الهدف من التأويل أن نرضي الماضي، بل أن نجعل النص القرآني حاضراً في وعينا الحضاري، منتجاً للمعنى في واقعنا المعاصر»^٩.

تطبيقات التأويل عند محمد عابد الجابري في مشروعه "فهم القرآن الحكيم"

يمثل كتاب فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول ذروة المشروع التأويلي لمحمد عابد الجابري، إذ يُعدّ التطبيق العملي لأفكاره النظرية حول العقل العربي والتأويل البرهاني. ففي هذا العمل الذي استغرق أكثر من عقد من الزمن سعى الجابري إلى تقديم قراءة جديدة للقرآن الكريم تُزّوج بين العقلانية والالتزام بالنص وتستند إلى ترتيب النزول بدلاً من الترتيب المصحفي، بهدف فهم السياق التاريخي والتدرج التشريعي والمعرفي للوحي^{١٠}.

منهج التفسير حسب ترتيب النزول

اختر الجابري أن يرتّب تفسيره وفق ترتيب النزول لأن هذا الترتيب في نظره يعبر عن منطق التكوين التدريجي للوعي القرآني ويساعد في إدراك تطور الخطاب الإلهي في مواجهة الواقع الاجتماعي والروحي للمجتمع المكي والمدني وقد صرّح قائلاً: «إنّ فهم القرآن في ضوء سياق نزوله الزمني هو السبيل إلى كشف منطق الخطاب القرآني وتكامله الداخلي»^{١١}، فبهذا المنهج استطاع أن يربط بين القرآن كتجربة تاريخية والقرآن كخطاب مطلق، وأن يبرز العلاقة بين النص والواقع، بعيداً عن التفكيك الموضوعي الذي كان سائداً في كتب التفسير القديمة.

التفسير الموضوعي ومبدأ الوحدة العضوية للنص

يؤمن الجابري بأنّ النص القرآني بنية دلالية متكاملة لا تُفهم آياته إلا في ضوء الكلّ الذي تنتمي إليه. لذلك كان تفسيره قائماً على الوحدة العضوية للنص أي النظر إلى السورة أو المجموعة النصية بوصفها وحدة فكرية متناسقة، تتكامل فيها المفاهيم والمقاصد^{١٢}، لقد تجاوز بذلك التفسير التجزيئي الذي يفصل الآيات عن سياقها، إذ رأى أن هذا الأسلوب كان أحد أسباب تضخم الخلافات الكلامية والمذهبية. ومن هنا، جاءت قراءته لترابط بين المقاطع القرآنية من خلال «محاوّر المعنى»، مثل: الإيمان، الوحي، العقل، المجتمع، والعدل، وهي المفاهيم التي تشكل منظومة الفكر القرآني عنده.



موقفه من القصص القرآني

تناول الجابري القصص القرآني من منظور رمزي وتاريخي عقلاني، معتبراً أن الهدف منه ليس السرد التاريخي بل العبرة الفكرية. فقصص الأنبياء _ في نظره تمثل بناءً معرفياً لتشكيل الوعي الإيماني، وليست روايات عن الماضي^{١٣}، ويرى أن كثيراً من المفسرين القدامى انشغلوا بتفاصيل القصص على حساب مقاصدها، فأدخلوا الإسرائيليات والروايات الغيبية، بينما المطلوب قراءة القصص باعتباره "خطاباً تربوياً" موجهاً للعقل الإنساني، يقول الجابري في هذا السياق: «القصة القرآنية تشغل رمزياً لتغذية الوعي، لا لتوثيق التاريخ»^{١٤}.

اللغة الدينية في التأويل الجابري

يولي الجابري اهتماماً كبيراً باللغة القرآنية بوصفها لغةً رمزية ومقصدية، لا تفهم إلا في سياقها التداولي فهو يرفض القراءة الحرفية للنص، كما يرفض التأويلات التي تفصل بين اللفظ ومعناه الحقيقي، لقد تبنّى في هذا الصدد موقفاً وسطياً؛ إذ يرى أن اللغة القرآنية لغة بشرية في أدواتها، إلهية في مقصدها، وبالتالي فإن تأويلها يجب أن يوازن بين دلالاتها اللغوية والثقافية كما اعتبر أن اللغة القرآنية تمتاز بقدرتها على توليد المعنى عبر التفاعل مع الواقع، وأن النص يمتلك ديناميكية تجعله متجدداً عبر التاريخ^{١٥}.

تأويل قضايا العقيدة والشريعة

في تناول قضايا العقيدة، ركّز الجابري على الجوانب العقلانية والأخلاقية في الخطاب القرآني، معتبراً أن الهدف من العقيدة هو تحرير الإنسان من الجهل والوصاية، وليس فرض أنماط إيمانية جامدة. أما في الشريعة، فقد دعا إلى قراءة المقاصد الكلية للنص، لا إلى التوقف عند الجزئيات الفقهية. وهو يرى أن مقاصد القرآن الكبرى تتمثل في العدل، والحرية، والمساواة، والعقلانية، وأن كل حكم جزئي يجب أن يُفهم في ضوء هذه المقاصد^{١٦}، بهذا التوجه، سعى الجابري إلى تأسيس تأويل إصلاحي يجعل من النص القرآني قوة فاعلة في بناء الحداثة العربية الإسلامية.

النقد الموجّه لتفسير الجابري

رغم القيمة العلمية لمشروع فهم القرآن الحكيم، إلا أنه أثار جدلاً واسعاً بين الباحثين. فقد رأى بعضهم، كطه عبد الرحمن، أن الجابري سقط في عقلانية مفرطة تُخضع النص لمقولات الفلسفة الحديثة^{١٧}، في حين اعتبر آخرون، كناصر حامد أبو زيد، أن الجابري لم يذهب بعيداً بما يكفي في نقد التراث التفسيري، وظلّ مقيّداً بحدود الرؤية الفقهية. غير أن الجابري نفسه أكد أنّ مقصده ليس التفكيك أو الإنكار، بل إعادة التأسيس المعرفي لفهم القرآن في ضوء العقل البرهاني والتاريخية النقدية.

نقد التأويل الجابري وموقعه في الفكر العربي الحديث

لقد مثّل مشروع محمد عابد الجابري في تأويل النص القرآني امتداداً لمنهجه العام في نقد العقل العربي، حيث سعى إلى تأسيس قراءة عقلانية للقرآن الكريم تستند إلى مفهوم "العقل التداولي العربي" بدلاً من القراءات



البيانبة أو العرفانية أو البرهانية التقليدية غير أنّ هذه المقاربة رغم ما تتطوي عليه من تجديد معرفي قد أثارت تساؤلات عميقة حول حدود "العقلانية" في التعامل مع النص المقدس ومدى قدرتها على استيعاب البعد الغيبي والروحي للوحي فالجابري في أعماله - ولا سيما في مدخل إلى القرآن الكريم - تعامل مع النصّ القرآني من منظور معرفي تاريخي، رافضاً القراءة الغيبية أو الميتافيزيقية التي سادت التراث التفسيري وهو يرى أنّ فهم الوحي لا يتمّ إلا عبر تحليل البنية التداولية للغة، أي من خلال شروط الزمان والمكان التي تحدّد دلالات الخطاب القرآني^{١٨}، لكن هذا الموقف أثار اعتراضات عدّة من باحثين رأوا فيه تغليباً للبعد التاريخي على البعد الإلهي في النصّ، مما جعله أقرب إلى قراءة ثقافية - فلسفية منه إلى قراءة إيمانية. وقد اعتبر بعض النقاد أن الجابري لم يميّز بما يكفي بين "العقل المؤوّل" و"العقل المؤمن"، وأن تأويله أقرب إلى "التأويل المصلحي" الذي يُسقط مشروعات الإصلاح الحديثة على النصّ^{١٩}.

موقف النقاد العرب من تأويل الجابري

واجهت قراءة الجابري للقرآن الكريم انتقادات من اتجاهات فكرية متباينة:

الاتجاه التراثي المحافظ اتهمه بإخضاع النصّ القرآني لمنطق التاريخ والعقل الأداتي، معتبراً أنّ مشروعه يتجاهل البعد الغيبي والمعجز للوحي. ومن أبرز من مثّل هذا الاتجاه المفكّر المغربي طه عبد الرحمن الذي رأى أنّ الجابري "اختزل العقل الإسلامي في بعده الأداتي، وأقصى البعد الائتماني الذي يُوحد بين الفهم والعمل، والعقل والقلب"^{٢٠}. الاتجاه الإسلامي الإصلاحية (مثل فهمي هويدي وعماد الدين خليل) رأى أنّ الجابري، رغم دفاعه عن "العقلانية"، لم يقدّم قراءة منهجية للنصّ تتطوّل من الإيمان بقديسيته، بل حوّله إلى نصّ ثقافي خاضع لقوانين التاريخ^{٢١}. الاتجاه الحداثي النقدي (مثل نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون) اعتبر أنّ مشروع الجابري ظلّ متردداً بين الوفاء للتراث والجرأة في القطيعة معه؛ فهو لم يبلغ حدّ "الهرمنيوطيقا الحديثة" التي تعترف بتعدّد المعاني، بل ظلّ مشدوداً إلى مركزية النصّ ومرجعيتها اللغوية^{٢٢}.

المقارنة بين الجابري وأركون وأبو زيد

يُعدّ كلّ من محمد أركون ونصر حامد أبو زيد أقرب المفكرين إلى الجابري في سعيهم إلى تجديد التأويل القرآني، لكن ثمة فروقاً جوهرية بينهم: أركون اعتمد المنهج الأنثروبولوجي واللساني في قراءة القرآن، معتبراً إياه نصّاً مفتوحاً على التأويل غير المنتهي، ودعا إلى "أنسنة النصّ" وفصله عن القراءات الفقهية السلطوية. أبو زيد ركّز على البعد اللغوي والتاريخي، ورأى أنّ النصّ القرآني منتج ثقافي تواصلية، لا يمكن فهمه إلا في ضوء سياق التنزيل. أما الجابري فظلّ أكثر حذراً من الاثنين؛ فهو لم ينكر قدسية النصّ، لكنه دعا إلى تحريره من سلطة الفقهاء والمتصوفة، وإعادة تدويره إلى "العقل التداولي العربي"، أي إلى اللغة والمعنى المقاصدي كما تبلور في الوعي الجمعي العربي^{٢٣}، وبذلك يمكن القول إنّ الجابري قدّم صيغة "وسطية" للتأويل: فهو لم يؤوّل القرآن تأويلاً تفكيكياً كما فعل



أركون، ولم يحوِّله إلى خطاب ثقافي خالص كما فعل أبو زيد، بل سعى إلى عقلنته ضمن أفق معرفي عربي - إسلامي، مع الحفاظ على وحدته الدلالية ومقاصده الأخلاقية.

حدود المشروع الجابري في التأويل

رغم أهمية الجهد الذي بذله الجابري في إعادة بناء العلاقة بين العقل والنص، إلا أن مشروعه واجه حدوداً معرفية ومنهجية واضحة:

التاريخانية المفرطة: إذ إن تفسير القرآن في ضوء البنية التداولية وحدها يؤدي إلى تجميد النص في لحظته التاريخية، ويمنع انفتاحه على آفاق دلالية جديدة.

إغفال البعد الإيماني: تأويل الجابري، وإن اتسم بالعقلانية، فقد أغفل كثيراً من الأبعاد الوجدانية والروحية التي تمثل جوهر الخطاب القرآني.

ازدواجية المرجعية: الجابري كان يستند في آنٍ واحد إلى مناهج الحداثة الغربية (الابستمولوجيا والبنويّة) وإلى مفاهيم تراثية (كالبيان والبرهان)، مما جعل مشروعه يتأرجح بين الأصالة والمعاصرة^{٢٤}.

ورغم هذه الإشكالات، فإن مشروع الجابري يظلّ من أهم المشاريع العربية في الفكر المعاصر؛ لأنه فتح باباً واسعاً للنقاش حول كيفة قراءة النص القرآني قراءة عقلانية لا تفقد روح الإيمان.

مكانة الجابري في الفكر التأويلي العربي الحديث

يمكن القول إنّ محمد عابد الجابري قد أسس - بوعيه النقدي الحاد - مرحلة جديدة من التفكير في النصّ القرآني، إذ نقل النقاش من مجال الدفاع اللاهوتي إلى مجال النقد المعرفي، لقد كان هدفه الأساس هو تحرير النصّ من التأويلات السلطوية، سواء أكانت فقهية أو صوفية، وردّه إلى وظيفته الأصلية بوصفه خطاباً موجّهاً للعقل الإنساني، حاملاً لمشروع أخلاقي حضاري. وفي هذا السياق، مثّل الجابري حلقة وصل بين التراث الإسلامي والفكر الحديث، ونجح في صياغة نموذجٍ للتأويل يجمع بين احترام النصّ وتفعيل العقل، وهو ما جعل مشروعه مرجعاً رئيساً في الدراسات التأويلية المعاصرة^{٢٥}.

الخاتمة

يتبيّن من مجمل البحث أنّ الجابري قدّم مشروعاً تأويلياً متميّزاً في الفكر العربي الحديث، يقوم على إعادة الاعتبار للعقل العربي في فهم الوحي، عبر منهج معرفي يزواج بين اللغة والتاريخ والمقاصد. ومع ذلك، فإنّ مشروعه لم يخلُ من ثغرات نقدية تتعلّق بحدود العقلانية، وطبيعة العلاقة بين النصّ والمتلقي. غير أنّ قيمة الجابري الفكرية تكمن في أنّه جعل القرآن الكريم موضوعاً للنظر العقلي النقدي، لا للخضوع الطقوسي، وبذلك ساهم في بناء وعيٍ تأويلي جديد يعيد للإسلام بعده الحضاري والإنساني.



الهوامش

- ١ - محمد عابد الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١، ص. ٨٨.
- ٢ - محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ج ١، ص ١٢.
- ٣ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤، ص. ٣٣.
- ٤ - محمد عابد الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١، ص. ١٢٢.
- ٥ - محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ج ٢، ص ٢٧.
- ٦ - الجابري، نقد العقل العربي، مرجع سابق، ص. ٥٥.
- ٧ - الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ص. ٤١.
- ٨ - عبد السلام بنعبد العالي، الفكر العربي والتحول المعرفي، الدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠٠٤، ص. ٩٦.
- ٩ - الجابري، فهم القرآن الحكيم، ج ٣، ص. ١١.
- ١٠ - محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ج ١، ص. ٩.
- ١١ - المرجع نفسه، ص. ١١.
- ١٢ - المرجع نفسه، ص. ٢٥.
- ١٣ - المرجع نفسه، ج ٢، ص. ٤٧.
- ١٤ - المرجع نفسه، ص. ٥٢.
- ١٥ - محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ص. ٨٩.
- ١٦ - الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، مرجع سابق، ص. ١٣٣.
- ١٧ - طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦، ص ١١٢.
- ١٨ - محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء التمهيدي في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٤٥.
- ١٩ - عبد السلام بنعبد العالي، الفكر العربي والتحليل النصي، دار توبقال، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ١١٢.
- ٢٠ - طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص ١٣١.
- ٢١ - عماد الدين خليل، الإسلام والمستقبل، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠، ص ٩٤.
- ٢٢ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٢١٠.
- ٢٣ - محمد أركون، الفكر الإسلامي: قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٥٥.
- ٢٤ - عبد الله العروي، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص ٨٩.
- ٢٥ - محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، منشورات الزمن، الرباط، ٢٠٠٢، ص ١٧٧.

المراجع:

١. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.
٢. محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ج ١.
٣. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤.
٤. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.
٥. محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ج ٢.
٦. الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦.
٧. عبد السلام بنعبد العالي، الفكر العربي والتحول المعرفي، الدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠٠٤.
٨. محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ج ١.
٩. طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦.
١٠. محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء التمهيدي في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.
١١. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠.
١٢. محمد أركون، الفكر الإسلامي: قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢.
١٣. عبد الله العروي، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٦.
١٤. محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، منشورات الزمن، الرباط، ٢٠٠٢.